بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير الموضوعي
وفكرة توظيفه في إصلاح الأمة والتأسيس لفكر صحيح

د. صالح عسكر

إن التوجه المعاصر لتناول كثير من المواضيع وفق منهج التفسير الموضوعي قد فتح أفقا جديدا لعلنا لم نتمكن بعد من الإحاطة بسعته؛ فبالإضافة إلى قيمة النتائج العلمية المتوقعة من التوظيف الصحيح لهذا المنهج والمتمثلة في الإحاطة الكاملة بتفاصيل الموضوع من خلال كل النصوص القرآنية التي تتناوله على حد ظن المجتهد في تناوله، يبدو أن التفسير الموضوعي قدصار يستجلب اهتمام عوام المسلمين وخواصهم، ويجد في قلوبهم رضا وقبولا، مما يجعله الأقدر على التأثير فيهم وتوجيه تفكيرهم وسلوكهم.

من هذا المنطلق، تبرز فكرة استغلال هذا التفسير وتوظيفه على مستويين:

-المستوى الأول: ويتمثل في الاستفادة من هذا النوع من التفسير علميا، من خلال محاكمة كثير من المفاهيم –وخاصة المفاهيم المتنازع حولها– إليه، للخلوص –قدر الممكن– إلى مراد القرآن الكريم الصحيح منها، بعيدا عن كل ما أضيف إليها من تأويلات وتحويرات وتفسيرات.

- المستوى الثاني: وهو الأهم؛ وهو السعي، بل البحث عن أفضل الوسائل والسبل التي تؤدي إلى أحسن توظيف لهذا التفسير في توجيه أفكار المسلمين وإصلاح سلوكاتهم ومحاولة الترقي بهم إلى منازل السمو القرآنية التي رضيها الله لهم.

بناء على ما سبق، تفترض هذه الورقة طرح موضوع " **التفسير الموضوعي وفكرة الاستفادة منه في إصلاح الأمة والتأسيس لفكر صحيح** "، محاولة إبراز قيمة التفسير الموضوعي، وما هي الطرق العملية لتوظيفه.

حقيقة التفسير الموضوعي:

لا ريب أن التفسير الموضوعي ليس فنا جديدا بصفة كاملة وإن بدا أنه كذلك لأول وهلة، وإننا بتدقيق النظر نجد أنه ليس إلا صورة أكثر اتساعا وعمقا من تفسير القرآن بالقرآن الذي يتفق جميع أهل التفسير على أنه الخطوة الأولى من خطوات هذا الفن . فإننا نجد –منذ العصور الأولى– دلائل تشير إلى أن بعض المفسرين كانوا ينظرون في المسألة الواحدة في المواضع المختلفة من القرآن الكريم. روى البخاري عَنْ سَعِيدٍ [بن جبير] قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ

عَبَّاسٍ: إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ، قَالَ:"فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ " "وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ "، "وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا" "والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ" فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَقَالَ :" أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا" إِلَى قَوْلِهِ:" دَحَاهَا " فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الأَرْضِ، ثُمَّ قَال:" أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ" إِلَى " طَائِعِينَ " فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الأَرْضِ قَبْلَ السَّمَاءِ ، وَقَالَ :" وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا " "عَزِيزًا حَكِيمًا" " سَمِيعًا بَصِيرًا"، فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى. فَقَال:" فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ " فِي النَّفْخَةِ الأُولَى ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّور فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ ، فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ، ثُمَّ فِي النَّفْخَةِ الآخِرَةِ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ:" مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ " " وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ " فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لأَهْلِ الإِخْلاَصِ ذُنُوبَهُمْ، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ تَعَالَوْا نَقُولُ لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ . فَخَتَمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللَّهَ لاَ يُكْتَمُ حَدِيثًا وَعِنْدَهُ " يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا "الآيَة، وَخَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ، فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ثُمَّ دَحَا الأَرْضَ، وَدَحْوُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالْجِمَالَ وَالآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:" دَحَاهَا "، وَقَوْلُهُ:" خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ " فَجُعِلَتِ الأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَخُلِقَتِ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ . " وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا " سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ وَذَلِكَ قَوْلُهُ، أَيْ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلاَّ أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ ، فَلاَ يَخْتَلِفْ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ ، فَإِنَّ كُلاًّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ "[1]، وذكره ابن جرير مختصرا.[2]

فهذه صورة من تفسير القرآن بالقرآن انطلقت من النظر في دلالات آيات في مواضع مختلفة من القرآن الكريم يجمعها جامع واحد، وإن كنا لم نكن لنصنفه اليوم في التفسير الموضوعي لاعتماده لنصوص معدودة وعدم تتبعه لجميع نظائرها في القرآن كله. وأصرح من ذلك قول ابن عباس –رضي الله عنهما-:" كل زعم في القرآن فهو كذب "[3]؛ إذ أن مثل هذا لا يصدر إلا عمن تتبع لفظ "زعم" في القرآن الكريم كله للخلوص بهذه النتيجة العلمية، وذلك يصدق عليه وصف التفسير الموضوعي رغم أنه لم يصنف ضمنه، ورغم أن مسائله لم

---

[1] محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير باب سورة السجدة ج 16 / ص 85، وانظر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج 4 / ص 12، دار إحياء التراث العربي، بيروت: 1965م.

[2] انظر: محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن ج 8/ص373، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1: 1420هـ-2000م

[3] تفسير القرطبي ج6/ص401

تجمع بصورة مستقلة ولم يصنف فيها وفق هذا المنهج وحده. وهو خلاف قول الراغب في مفرداته:" الزعم: حكاية قول يكون مظنة للكذب، ولهذا جاء في القرآن في كل موضع ذم القائلون به، نحو: "زعم الذين كفروا" [التغابن/7]، "بل زعمتم" [الكهف/48]، "كنتم تزعمون" [الأنعام/22]، "زعمتم من دونه" [الإسراء/ 56] "[1]، إذ أنه انطلق من المعنى اللغوي واستشهد عليه بما في القرآن الكريم، أما ابن عباس –رضي الله عنهما– فقد استنبط المعنى من توظيف اللفظ في القرآن الكريم، والفرق بين المنهجين دقيق ولكنه محوري.

بناء على ذلك، يمكن أن نقول: إن التفسير الموضوعي هو نوع من التطوير لمبدأ تفسير القرآن بالقرآن عبر السعي إلى جمع جميع النظائر المندرجة ضمن موضوع واحد في القرآن كله أو الموضوع المشترك بين أجزاء السورة الواحدة ليكون الناظر فيها أقدر على الإحاطة بتفاصيل الأجزاء المكونة لفكرة الموضوع من خلال القرآن الكريم أو السورة القرآنية الواحدة.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا يفترض أن يتجرد الدارس من كل خلفية سابقة عن الموضوع المراد دراسته، بل يفترض زيادة على ذلك أن يتجرد من جميع المسلمات العالقة بذهنه حوله، فإذا فعل كان أقدر على الوصول إلى استنباط تصور قرآني كامل يكون أقرب إلى الصواب من غيره من التصورات عن الموضوع.

من هنا كان التوجه الحديث نحو هذا الفن يفرض علينا أن نوليه اهتماما خاصا من أجل تحقيق جملة من الأهداف العلمية والعملية. فما هي الأمور المتوخاة من توظيف التفسير الموضوعي؟

أولا: دور التفسير الموضوعي في الجانب العلمي:

نص القرآن الكريم على وجوب رد ما وقع التنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، من ذلك قوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا "[سورة النساء: 59]. ورد التنازع إلى الله والرسول –صلى الله عليه

---

[1] أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم ج1/ص435، دار القلم –دمشق

وسلم- واجب في مسائل الأحكام كقصة التنازع في شراج الحرة التي روي أنها سبب لنزول الآية أو الآيات التي تليها[1]،

ولكن عموم اللفظ يقتضي رد النزاع في المسائل العلمية إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ لذلك فإن الآراء إذا اختلفت وتنازعت وتضاربت كان ردها إلى المنصوص عليه في القرآن الكريم والسنة المطهرة ردا إلى الله ورسوله. من هنا يكون التفسير الموضوعي فاصلا في الاقتراب قدر المستطاع من المعنى الحقيقي المراد من القرآن الكريم في المسألة. فما هي النزاعات العلمية التي يمكن أن يفصل فيها عن طريق التفسير الموضوعي؟

نماذج من المسائل التي يمكن أن يفصل فيها عن طريق التفسير الموضوعي:

يمكن للتفسير الموضوعي أن يكون فاصلا في مسائل مختلفة قد تكون عقدية أو فقهية أو تقعيدية أو غير ذلك، وسنحاول أن نضرب لذلك أمثلة.

النموذج الأول: المسائل العقدية: من أجود الأمثلة في هذا الباب مسألة تأويل الصفات التي وقع الخلاف فيها بين أهل السنة والجماعة وسائر الفرق، ووجد كل واحد من الفريقين سندا لرأيه في قوله تعالى[2]:" هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"[سورة آل عمران: 7]، وذلك أنه يحتمل أن يوقف على قوله تعالى:" وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ " أو على قوله عز وجل:" وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ". قال ابن الجوزي:" وهل يعلم الراسخون تأويله أم لا؟ فيه قولان . أحدهما : أنهم لا يعلمونه ، وأنهم

---

[1] في صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ - رضى الله عنهما - أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - فيشِرَاجِ الْحَرَّةِ الَّتِى يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ فَقَالَ الأَنْصَارِ يُّ سَرِّحِ الْمَاءَ يَمُرُّ فَأَبَى عَلَيْهِ ، فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - لِلزُّبَيْرِ « اسْقِ يَا زُبَيْرُ ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ » . فَغَضِبَ الأَنْصَارِ يُّ ، فَقَالَ: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ . فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - ثُمَّ قَالَ « اسْقِ يَا زُبَيْرُ ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ » . فَقَالَ الزُّبَيْرُ وَاللَّهِ إِنِّى لأَحْسِبُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ في ذَلِكَ:" فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ". صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب باب سكر الأنهار ج8/ص453. وانظر: محمد بن إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج 2 / ص 349،: دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط2: 1420هـ- 1999م، تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

[2] انظر: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتوى ج13/ص277 وما بعدها.

مستأنفون ، وقد روى طاووس عن ابن عباس أنه قرأ " ويقول الراسخون في العلم آمنّا به " وإلى هذا المعنى ذهب ابن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، وابن عباس ، وعروة ، وقتادة ، وعمر بن عبد العزيز ، والفراء ، وأبو عبيدة ، وثعلب ، وابن الأنباري ، والجمهور . قال ابن الأنباري : في قراءة عبد الله " إن تأويله إلا عند الله ، والراسخون في العلم " وفي قراءة أُبيّ ، وابن عباس " ويقول الراسخون " وقد أنزل الله تعالى في كتابه أشياء ، استأثر بعلمها ، كقوله تعالى : " قل إنما علمها عند الله "[الأعراف : 87] وقوله تعالى:" وقروناً بين ذلك كثيراً"[الفرقان : 38] فأنزل الله تعالى المجمل ، ليؤمن به المؤمن ، فيسعد ، ويكفر به الكافر ، فيشقى .

والثاني : أنهم يعلمون ، فهم داخلون في الاستثناء . وقد روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال : أنا ممن يعلم تأويله ، وهذا قول مجاهد ، والربيع ، واختاره ابن قتيبة ، وأبو سليمان الدمشقي"[1].

ولكن لما كان الوقف على المعنى الثاني صحيحا في اللغة، وقد جاءت به الرواية، لم يكن لتجاهل هذا الوجه ورفضه سبيل، قال القرطبي:" .. ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره فقد روي عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل، وأنهم داخلون في علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به، وقاله الربيع ومحمد بن جعفر ابن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم...

واحتج قائلو هذه المقالة أيضا بأن الله سبحانه مدحهم بالرسوخ في العلم، فكيف يمدحهم وهم جهال ! وقد قال ابن عباس: أنا ممن يعلم تأويله.

وقرأ مجاهد هذه الآية وقال: أنا ممن يعلم تأويله، حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالى"[2].

ثم زاد قولا ثالثا فقال:" وقد رد بعض العلماء هذا القول إلى القول الأول فقال: وتقدير تمام الكلام " عند الله " أن معناه وما يعلم تأويله إلا الله : يعني تأويل المتشابهات، والراسخون في العلم يعلمون بعضه قائلين آمنا به كل من عند ربنا بما نصب من الدلائل في المحكم ومكن من رده إليه.

فإذا علموا تأويل بعضه ولم يعلموا البعض قالوا آمنا بالجميع كل من عند ربنا، وما لم يحط به علمنا من الخفايا مما في شرعه الصالح فعلمه عند ربنا "[1].

---

[1] أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير ج 1 / ص 301.

[2] تفسير القرطبي ج 4 / ص 17-18.

والحاصل أن من تمسك بأحد القولين لم يستطع أن ينفي قول الآخر. وقام ابن تيمية بتحقيق معنى التأويل عبر تتبع معناه في سائر الآيات التي ورد فيها لفظ التأويل في القرآن الكريم ليخلص بنتيجة باهرة، وقد قمنا بإعادة ترتيب أقواله لتخرج في صورة موافقة للتفسير الموضوعي. قال" وقد جاء اسم التأويل في القرآن في غير موضع هذا معناه : قال الله تعالى:"وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ "[سورة الأعراف: 52–53]، فقد أخبر أنه فصل الكتاب وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لا يشتبه . ثم قال :" هل ينظرون ": أي ينتظرون " إلا تأويله يوم يأتي تأويله " إلى آخر الآية، وإنما ذلك مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة و أشراطها كالدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ومجيء ربك والملك صفا صفا وما في الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك فحينئذ يقولون :" قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" "[2]. فالتأويل في الآية كما يقول هو تحقق ما وقع الخبر عنه وإن كانت صورته قبل ذلك معلومة ولكن في الذهن، فتأويله تحقق ما في الذهن في الحقيقة، وقد دعم قوله هذا بآية سورة السجدة التي تفيد هذا المعنى بوضوح وإن لم تتضمن لفظ التأويل فقال:"وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته إلا الله فإن الله يقول:" فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ "[سورة السجدة: 17] ويقول:" أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر "، وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فإن الله قد أخبر أن في الجنة خمرا ولبنا وماء وحريرا وذهبا وفضة وغير ذلك ونحن نعلم قطعا أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما في قوله " وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا"[سورة البقرة: 25] على أحد القولين أنه يشبه ما في الدنيا وليس مثله؛ فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه؛ فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه، وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر

---

[1] نفسه ص18.

[2] مجموع الفتاوى ج 13 / ص 278–279

الله به "[1]. فالتأويل بهذا المعنى هو تحقق المخبر به والذي يعلمه الناس ولكن لا يعلم وصفه على الحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

ثم ثنى بآية أخرى من سورة يونس تضمنت أيضا لفظ التأويل فقال:" ومما جاء من لفظ التأويل في القرآن قوله تعالى:" بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ "[سورة يونس: 39]، والكناية عائدة على القرآن أو على ما لم يحيطوا بعلمه وهو يعود إلى القرآن ، قال تعالى:" وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40)" [سورة يونس:37-40]. فأخبر سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفي كقوله:" وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ"[سورة هود: 117]، وقوله:" وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ"[سورة الأنفال: 33]؛ لأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله كما تحداهم وطالبهم لما قال:" أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " فهذا تعجيز لجميع المخلوقين، قال تعالى:" وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ " أي: مصدق الذي بين يديه "وتفصيل الكتاب" أي: مفصل الكتاب، فأخبر أنه مصدق الذي بين يديه ومفصل الكتاب ، والكتاب اسم جنس، وتحدى القائلين افتراه ودل على أنهم هم المفترون، قال:" بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ " أي كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ففرق بين الإحاطة بعلمه وبين إتيان تأويله، فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ولما يأتهم تأويله، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام على التمام وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به. وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به ؛ فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن ومعرفة المخبر به هي معرفة تأويله "[2].

لقد قام ابن تيمية ببيان معاني أجزاء الآية ثم ربط بعضها ببعض ليخلص إلى أن التأويل والإحاطة بالعلم شيئان مفترقان؛ فالإحاطة بالعلم هي إدراك المعنى أو هو التفسير بالمصطلحات العصرية الذي يعرفه أهل العلم والإيمان، أما التأويل فهو وقوع المخبر به؛

---

[1] نفسه.

[2] مجموع الفتاوى ج 13 / ص 283

بمعنى أن الأول هو صورة الشيء في ذهن المفسر والثاني هو صورته المشاهدة المدركة بالحس، وقد زاد هذا المعنى بيانا فقال:" و نكتة ذلك أن الخبر لمعناه صورة علمية وجودها في نفس العالم كذهن الإنسان مثلا ولذلك المعنى حقيقة ثابتة في الخارج عن العلم، واللفظ إنما يدل ابتداء على المعنى الذهني ثم تتوسط ذلك أو تدل على الحقيقة الخارجة ، فالتأويل هو الحقيقة الخارجة وأما معرفة تفسيره ومعناه فهو معرفة الصورة العلمية وهذا هو الذي بيناه فيما تقدم أن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه، محكمه ومتشابهه، وإن لم يعلم تأويله "[1].

كما قام –رحمه الله– بتوظيف جملة الآيات الواردة في تأويل الرؤيا والواقعة في سورة يوسف –عليه السلام– بذكاء واقتدار ليستنبط منها تقريرا للمعنى السابق الذي ذكره، فقال:"ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف:" وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ "[سورة يوسف: 6]، وقوله:" وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا "[سورة يوسف: 36–37]، وقول الملأ:" أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ "[سورة يوسف: 44–45]، وقول يوسف لما دخل عليه أهله مصر وآوى إليه أبويه:" وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا "[سورة يوسف: 99–100]. فتأويل الأحاديث التي ه ي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تؤول إليه كما قال يوسف:" هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ "، والعالم بتأويلها الذي يخبر به كما قال يوسف:"لا يأتيكما طعام ترزقانه " أي في المنام "إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما": أي قبل أن يأتيكما التأويل "[2]. فتأويل الرؤى هو" نفس مدلولها الذي تؤول إليه" أي صورة معانيها في الحقيقة* .

وقريب من تأويل الرؤى معرفة مقاصد ما غابت عن العبد حكمته كالذي ورد في قصة موسى عليه السلام مع الخضر، قال:"وقال تعالى في قصة موسى والعالم:" قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي

---

[1] مجموع الفتاوى ج 13 / ص 283.

[2] نفسه ج 13 / ص 290

* قد يحتج عليه بأن الإنباء في كل هذه الآيات هو صورة في الذهن وكذلك تعليم الله سبحانه وتعالى عبده يوسف عليه السلام التأويل لا يجعل ذلك إلا صورة في ذهنه، لا يسلم من ذلك إلا نص واحد وهو قوله تعالى:"وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل" إذ أن التأويل هنا تحقق للرؤيا بحيث تعاين بالحواس.

وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا " إلى قوله " وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا "[سورة الكهف: 78-82]، فالتأويل هنا: تأويل الأفعال التي فعلها العالم من خرق السفينة بغير إذن صاحبها ومن قتل الغلام ومن إقامة الجدار؛ فهو تأويل عمل لا تأويل قول"[1]. ثم يقدم تخريجا لغويا للمسألة فيقول:" وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوله يؤوله تأويلا مثل حول تحويلا وعول تعويلا وأول يؤول، تعديه آل يؤول أولا مثل حال يحول حولا. وقولهم آل يؤول: أي عاد إلى كذا ورجع إليه، ومنه المآل: وهو ما يؤول إليه الشيء، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الموئل فإنه من وأل وهذا من أول، والموئل: المرجع قال تعالى:" لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا "[سورة الكهف: 58] "[2].

ومما استدل به مما يتضمن لفظ التأويل أيضا آية سورة النساء التي تأمر برد التنازع إلى الله والرسول لأنه خير وأحسن تأويلا، قال:"وقال الله تعالى:" :" فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا "[سورة النساء: 59]، قالوا: أحسن عاقبة ومصيرا. فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة، والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا، والتأويل في الأعراف ويونس تأويل القرآن، وكذلك في سورة آل عمران "[3].

وقد بنى ابن تيمية على فهمه لهذه النصوص مجتمعة أمرين:

- أحدهما: أن التأويل في القرآن الكريم له معنى غير المعنى المشهور عند المفسرين، والمعنى المتعارف عليه عند الفقهاء. قال:" ومنشأ الشبهة الاشتراك في لفظ التأويل ؛ فإن التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف؛ فإذا قال أحدهم : هذا الحديث أو هذا النص مؤول أو هو محمول على كذا قال الآخر: هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل، والمتأول: عليه وظيفتان بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر، وهذا هو التأويل الذي

---

[1] مجموع الفتاوى ج13/ص291، وتنطبق عليه الملاحظة السابقة أيضا وبصورة أكثر جلاء؛ وذلك أنه لما امتنع وقوعه فليس له صورة إلا في ذهن المخبر به مهما كانت قريبة من الإحاطة بصفة ما كان يمكن وقوعه من سلب السفينة وإضلال الوالدين وضياع مال اليتيمين.

[2] نفسه.

[3] نفسه ج 13 / ص 290

يتنازعون فيه في مسائل الصفات إذا صنف بعضهم في إبطال التأويل أو ذم التأويل أو قال بعضهم: آيات الصفات لا تؤول، وقال الآخر: بل يجب تأويلها، وقال الثالث: بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ويترك عند المصلحة أو يصلح للعلماء دون غيرهم إلى غير ذلك من المقالات والتنازع . وأما التأويل فى لفظ السلف فله معنيان : أحدهما تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقاربا أو مترادفا ... و المعنى الثاني... هو نفس المراد بالكلام فإن الكلام إن كان طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبرا كان تأويله نفس الشيء المخبر به ... "[1]، وهو المعنى الذي يرى أنه يوافق مدلول الآيات القرآنية فيقول:"وهذا الوضع والعرف الثالث هو لغة القرآن التي نزل بها "[2].

– والثاني: أن الناس قد يعلمون شيئا من تأويل المتشابه أو من الكتاب كله، ولكن علمه على الوجه الكامل مما استأثر الله بعلمه، قال:" وقوله:" وما يعلم تأويله": إما أن يكون الضمير عائدا على الكتاب أو على المتشابه ؛ فإن كان عائدا على الكتاب ... يصح فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله ... وإذا كان التأويل للكتاب كله والمراد به ذلك ارتفعت الشبهة وصار هذا بمنزلة قوله:" يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" إلى قوله:" إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ "[سورة الأعراف: 187]، وكذلك قوله:" يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا "[سورة الأحزاب: 63]، فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به فعلم تأويله كعلم الساعة والساعة من تأويله وهذا واضح بين ولا ينافي كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها فهذا هذا. وإن كان الضمير عائدا إلى ما تشابه كما يقوله كثير من الناس فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه بخلاف الأمر والنهي ، ولهذا في الآثار العمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه لأن المقصود في الخبر الإيمان وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه بخلاف الأمر والنهي، ولهذا قال بعض العلماء: المتشابه الأمثال والوعد والوعيد، و المحكم: الأمر والنهي، فإنه متميز

---

[1] مجموع الفتاوى ج 13 / ص 288-289

[2] نفسه 290/13

غير مشتبه بغيره؛ فإنه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع وأمور نتركها لابد أن نتصورها"[1].

النموذج الثاني: المسألة الفقهية:

وقع الخلاف في تزوج الزاني والزانية بسبب الاختلاف في مدلول قوله تعالى:" الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ "[سورة النور: الآية3]. قال ابن رشد:"واختلفوا في زواج الزانية، فأجاز هذا الجمهور، ومنعها قوم. وسبب اختلافهم: اختلافهم في مفهوم قوله تعالى: " وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ": هل خرج مخرج الذم أو مخرج التحريم؟ وهو الإشارة في قوله: " وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ " إلى الزنا أو إلى النكاح؟ "[2].

وقد ذكر في تخريج معنى الآية ستة أقوال[3]:

الأول: أن يكون مقصد الآية تشنيع الزنا وتبشيع أمره، وأنه محرم على المؤمنين. قال القرطبي:" واتصال هذا المعنى بما قبل حسن بليغ. ويريد بقوله: " لا ينكح " أي لا يطأ، فيكون النكاح بمعنى الجماع. وردد القصة مبالغة وأخذا من كلا الطرفين، ثم زاد تقسيم المشركة والمشرك من حيث الشرك أعم في المعاصي من الزنا، فالمعنى: الزاني لا يطأ في وقت زناه إلا زانية من المسلمين، أو من هي أحسن منها من المشركات. وقد روي عن ابن عباس وأصحابه أن النكاح في هذه الآية الوطء. "[4].

الثاني: أنها نزلت في واقعة خاصة، روى أبو داود عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ مَرْثَدَ بْنَ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ كَانَ يَحْمِلُ الأُسَارَى بِمَكَّةَ وَكَانَ بِمَكَّةَ بَغِيٌّ يُقَالُ لَهَا عَنَاقُ وَكَانَتْ صَدِيقَتَهُ، قَالَ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْكِحُ عَنَاقَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي، فَنَزَلَتْ:" وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ "، فَدَعَانِي

---

[1] نفسه 13/280-281

[2] أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج 2 / ص 32-33

[3] انظر: تفسير القرطبي ج 12 / ص 167-170، وأحكام القرآن لابن العربي ج 5 / ص 486

[4] تفسير القرطبي ج12/ ص167-168.

فَقَرَأَهَا عَلَىَّ وَقَالَ:« لاَ تَنْكِحْهَا »[1]. " قال الخطابى: هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة، فأما الزانية المسلمة فإن العقد عليها لا يفسخ "[2].

الثالث: كالقول السابق إلا أن المستأذن والمستأذن في نكاحها ليسا مرثدا وعناقا، روى ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عمرو: أن رجلا من المسلمين استأذن نبي الله في امرأة يقال لها أم مهزول، كانت تسافح الرجل وتشترط له أن تنفق عليه، وأنه استأذن فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم وذكر له أمرها، قال: فقرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم:" وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ " أو قال: فأنزلت:" والزَّانِيَةُ ..."[3].

الرابع: أنها نزلت في أهل الصفة وكانوا قوما من المهاجرين، ولم يكن لهم في المدينة مساكن ولا عشائر فنزلوا صفة المسجد ، وكانوا أربعمائة رجل يلتمسون الرزق بالنهار ويأوون إلى الصفة بالليل، وكان بالمدينة بغايا متعالنات بالفجور، مخاصيب بالكسوة والطعام، فهم أهل الصفة أن يتزوجوهن فيأووا إلى مساكنهن ويأكلوا من طعامهن وكسوتهن، فنزلت هذه الآية صيانة لهم عن ذلك.

الخامس: أن المراد الزاني المحدود والزانية المحدودة.

السادس: أنها منسوخة، روى مالك عن سعيد بن المسيب قال:" نسخت هذه الآية بالتي بعدها ثم قرأ :" وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ "[سورة النور:32]"[4].

واختار ابن جرير القول الأول فقال:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: عنى بالنكاح في هذا الموضع الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات; وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان، فمعلوم إذ كان ذلك كذلك، أنه لم يُعْن بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات، ولا ينكح إلا بزانية أو مشركة، وإذ كان ذلك كذلك، فبين أن معنى الآية: الزاني لا يزني إلا بزانية لا تستحلّ الزنا

---

[1] أبو داود، السنن، كتاب النكاح، باب الزاني لا ينكح إلا زانية ج 6 / ص 230 ح2053، والترمذي، السنن، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النور ج11/ص468 ح3477

[2] تفسير القرطبي ج12/ص168.

[3] تفسير الطبري ج 19 / ص 96

[4] مالك، الموطأ –برواية محمد بن الحسن– باب التفسير ج 3/ص516 دار القلم: دمشق، ط1:1413 هـ – 1991 م، تحقيق : د. تقي الدين الندوي.

أو بمشركة تستحله. وقوله:" وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ " يقول: وحرّم الزنا على المؤمنين بالله ورسوله، وذلك هو النكاح الذي قال جلّ ثناؤه:" الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً " "[1].

وإن المتأمل في هذا الخلاف يجد أن مرجعه إلى أمرين ينبني أحدهما على الآخر: فأما الأول: فهو الاختلاف في مدلول النكاح في الآية: هل هو الوطء أم العقد؟ فمن قال هو الوطء قال: إن الآية خبر، ومن قال هو العقد قال إن" الآية نزلت في الزانية المشركة أنها لا ينكحها إلا زان أو مشرك وإن تزوج المسلم المشركة زنا إذ كانت لا تحل له "[2]، وقريب من ذلك قول من قال إنها نزلت في وقائع خاصة –هي السؤال عن تزوج عناق، أو أم مهزول، أو بغايا بأعيانهن وقع ذكر أسمائهن في بعض الروايات[3]–، وهناك من قال إنها منسوخة أو هي خاصة بالزاني المحدود، وبعضهم جعلها محكمة وأجرى ظاهرها، كما قال القرطبي:" قال قوم من المتقدمين: الآية محكمة غير منسوخة، وعند هؤلاء: من زنا فسد النكاح بينه وبين زوجته، وإذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها. وقال قوم من هؤلاء: لا ينفسخ النكاح بذلك، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت، ولو أمسكها أثم، ولا يجوز التزوج بالزانية ولا من الزاني، بل لو ظهرت التوبة فحينئذ يجوز النكاح "[4]، وفي أحكام الجصاص:" ومن الناس من يقول إن تزويج الزانية وإمساكها على النكاح محظور منهي عنه ما دامت مقيمة على الزنا وإن لم يؤثر ذلك في إفساد النكاح لأن الله تعالى إنما أباح نكاح المحصنات من المؤمنات ومن أهل الكتاب بقوله:" وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ"[سورة المائدة: 5]: يعني العفائف منهن، ولأنها إذا كانت كذلك لا يؤمن أن تأتي بولد من الزنا فتلحقه به وتورثه ماله، وإنما يحمل قول من رخص في ذلك على أنها تائبة غير مقيمة على الزنا "[5].

---

[1] تفسير الطبري ج 19 / ص 101

[2] أحكام القرآن للجصاص ج 5 / ص 107

[3] أمّ مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي، وأم عُلَيط جارية صفوان بن أمية، وحنة القبطية جارية العاصي بن وائل، ومَرية جارية مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار، وحلالة جارية سهيل بن عمرو، وأمّ سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي، وسريفة جارية زمعة بن الأسود، وفرسة جارية هشام ابن ربيعة بن حبيب بن حذيفة بن جبل بن مالك بن عامر بن لُؤَيّ، وقريبا جارية هلال بن أنس بن جابر بن نمر بن غالب بن فهر. انظر: تفسير الطبري ج 19 / ص 99.

[4] تفسير القرطبي ج 12 / ص 171

[5] أحكام القرآن للجصاص ج 5 / ص 109

و " قال ابن خويز منداد: من كان معروفا بالزنا أو بغيره من الفسوق معلنا به فتزوج إلى أهل بيت ستر وغرهم من نفسه فلهم الخيار في البقاء معه أو فراقه، وذلك كعيب من العيوب، واحتج بقوله عليه السلام: " لاَ يَنْكِحُ الزَّانِى الْمَجْلُودُ إِلاَّ مِثْلَهُ "[1]... وإنما ذكر المجلود لاشتهاره بالفسق، وهو الذي يجب أن يفرق بينه وبين غيره، فأما من لم يشتهر بالفسق فلا "[2].

ولنفهم كيف يمكن أن يكون التفسير الموضوعي فاصلا في هذه المسألة لا بد من معرفة مدلول كلمة النكاح في القرآن الكريم.

مفهوم النكاح في القرآن الكريم:

يرى اللغويون أن الأصل في معنى النكاح الوطء، قال الجوهري:" ا لنُكاحُ: الوَطْءُ، وقد يكونُ العقدَ "[3]، و "قال الأزهري: أصل النكاح في كلام العرب الوطء وقيل للتزوّج نكاح لأنه سبب للوطء المباح "[4]. أما الراغب الأصفهاني فيرى أن أصله العقد، قال:" أصل النكاح للعقد، ثم استعير للجماع، ومحال أن يكون في الأصل للجماع، ثم استعير للعقد؛ لأن أسماء الجماع كلها كنايات لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه، ومحال أن يستعير من لا يقصد فحشا اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه "[5].

وأما عن مدلوله في القرآن الكريم فقال الزجاج:" لا يعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج "[6]. قال القرطبي:" وليس كما قال، وفي القرآن :" حتى تنكح زوجا غيره"[البقرة: 230] وقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم أنه بمعنى الوطء"[7].

ولتحقيق هذه المسألة بواسطة منهج التفسير الموضوعي نقوم بتتبع جميع الآيات التي ورد فيها لفظ النكاح في القرآن الكريم، وجملة ذلك تسع عشرة آية [1]. وبعض هذه الآيات كون

---

[1] انظر: سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب "الزاني لا ينكح إلا زانية " ج 6 / ص 231.

[2] تفسير القرطبي ج 12 / ص 171

[3] الجوهري، الصحاح في اللغة ج 2 / ص 230.

[4] ابن منظور، لسان العرب ج 2 / ص 625

[5] الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم ج 2/ص452 دار القلم ــ دمشق

[6] تفسير القرطبي ج12/ ص167-168.

[7] نفسه

المراد بلفظ النكاح فيها العقد وليس الوطء جلي واضح نحو قوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا "[سورة الأحزاب: 49]، والجزء الأكبر منها يغلب أن يراد به العقد، ولا ترد شبهة الوطء إلا في آيتين:

الأولى: قوله تعالى:" وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آَنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ"[النساء: 6]. والمراد بـــ " حتى إذا بلغوا النكاح ": "بلغوا أن ينكحوا النساء "[2] وتلك القدرة على الوطء. لكن التحقيق أن ذلك ليس الوطء حقا، بل الوطء علامة تقريبية تدل على اكتمال العقل، ولذلك علقت الآية بعد ذلك دفع الأموال إليهم على الرشد " فَإِنْ آَنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ " لا على البلوغ. ومما يؤيد ذلك أن اليتيم لو بلغ سن الرشد مع عدم القدرة على الباءة واختبر فوجد راشدا وجب دفع ماله إليه.

والثانية: وهي التي اعترض بها الإمام القرطبي على الزجاج حين قال:" لا يعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج ". فأجاب:" وليس كما قال، وفي القرآن:" حتى تنكح زوجا غيره"[البقرة: 230] "[3]. والآية وردت في حق من طلق زوجه ثلاثا وأراد أن يراجعها فليس له ذلك حتى تنكح زوجا غيره ثم يفارقها فعند ذلك جاز ردها. وأشار بقوله:"وقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم أنه بمعنى الوطء " إلى ما روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ – رضي الله عنها –: جَاءَتِ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – فَقَالَتْ كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ فَطَلَّقَنِي فَأَبَتَّ طَلاَقِي ، فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيرِ ، إِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ . فَقَالَ « أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ، لاَ حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ » [4].

ولو دققنا النظر لوجدنا أن شرط تذوق العسيلة الذي هو كناية عن الوطء زيادة لم تستفد من اللفظ ولكن من الحديث كما استفيد تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من السنة لا من آية المحرمات من النساء؛ ولولا ذلك ما كان لسؤال المرأة النبي صلى الله عليه وسلم

---

[1] سور: البقرة/ 221، 230، 232، 235، النساء/ 2، 3، 6، 22، 25، 127، النور/ 3، 32 ،33، 60، القصص/27، الأحزاب/49، 50، 53، الممتحنة/10. انظر على سبيل المثال: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص718، دار الجيل، بيروت: 1408هـــ–1988م.

[2] ابن الجوزي، زاد المسير ج 1 / ص 490

[3] تفسير القرطبي ج12/ ص167–168.

[4] صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب شهادة المختبئ ج 9 / ص 423 ح2639

فائدة. ويؤيد ذلك أيضا أن المطلقة ثلاثا لو وطئت في سفاح ما حلت لزوجها الأول. فكان ذلك دليلا صريحا على أن المراد بالنكاح في الآية العقد.

وعليه يترجح أن المراد بالنكاح في الآية كما في كل ما ورد في القرآن الكريم العقد وليس الوطء.

فإذا ثبت هذا، بقي النظر في قوله عز وجل:"الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"[سورة النور: الآية3]، الذي لا يخلو "... من أحد وجهين: إما أن يكون خبرا –وذلك حقيقته– أو نهيا وتحريما "[1].

قال ابن العربي:" هَذِهِ الآيَة مِنْ مُشْكِلَاتِ الْقُرْآنِ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذِهِ صِيغَةُ الْخَبَرِ، وَهُوَ عَلَى مَعْنَاهُ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَشَرَحْنَاهُ ، رَدًّا عَلَى مَنْ يَقُولُ : إنَّ الْخَبَرَ يَرِدُ بِمَعْنَى الْأَمْرِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الزَّانِيَ لَا يَنْكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَنَحْنُ نَرَى الزَّانِيَ يَنْكِحُ الْعَفِيفَةَ. وَقَالَ أَيْضًا:" وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ "، وَنَحْنُ نَرَى الزَّانِيَةَ يَنْكِحُهَا الْعَفِيفُ، فَكَيْفَ يُوجَدُ خِلَافُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ ؟ وَخَبَرُهُ صِدْقٌ ، وَقَوْلُهُ حَقٌّ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ مُخْبِرُهُ بِخِلَافِ خَبَرِهِ؛ وَلِهَذَا أَخَذَ الْعُلَمَاءُ فِيهَا مَآخِذَ مُتَبَايِنَةً ... "[2].

وقد قام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بتحقيق المسألة، قال:" وأنه لا تردد في أن هذه الآية نزلت بعد تحريم الزنا إذ كان تحريم الزنا من أول ما شرع من الأحكام في الإسلام كما في الآيات الكثيرة النازلة بمكة، ... وأنه يلوح في بادئ النظر من ظاهر الآية أن صدرها إلى قوله أو " مشرك " إخبارٌ عن حال تزوج امرأة زانية وأنه ليس لتشريع حكم النكاح بين الزناة المسلمين، ولا نكاح بين المشركين. فإذا كان إخباراً لم يستقم معنى الآية إذ الزاني قد ينكح الحصينة والمشرك قد ينكح الحصينة وهو الأكثر فلا يستقيم لقوله تعالى :" الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة " معنى، وأيضاً الزانية قد ينكحها المسلم العفيف لرغبة في جمالها أو لينقذها من عهر الزنا وما هو بزان ولا مشرك فلا يستقيم معنى لقوله : " والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ". وإننا لو تنازلنا وقبلنا أن تكون لتشريع حكم فالإشكال أقوى إذ لا معنى لتشريع حكم نكاح الزاني والزانية والمشرك والمشركة، فتعين تأويل الآية بما يفيد معنى معتبراً "[3].

فقرر أن حمل الآية على كونها خبرا –بعد أن تقرر أن معنى النكاح: العقد لا الوطء– متعذر ومشكل، ولذلك وجب تأويلها على غير الظاهر الذي هو إفادتها الخبر.

---

[1] أحكام القرآن للجصاص ج 5 / ص 108

[2] أحكام القرآن لابن العربي ج 5 / ص 486

[3] تفسير التحرير والتنوير ج 9 / ص 431

قال:" والوجه في تأويلها : أن مجموع الآية مقصود منه التشريع دون الإخبار لأن الله تعالى قال في آخرها " وحرم ذلك على المؤمنين " . ولأنها نزلت جواباً عن سؤال مرثد تزويجه عناق وهي زانية ومشركة ومرثد مسلم تقي . غير أن صدر الآية ليس هو المقصود بالتشريع بل هو تمهيد لآخرها مشير إلى تعليل ما شُرع في آخرها "[1]. فهو هنا يجعل الآية بمجموعها مفيدة للتشريع، ولكن صدر الآية يتضمن خبرا هو كالتعليل الوارد للتشريع الواقع في آخرها، ومن ثم كان قوله سبحانه وتعالى:" الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ " خبرا، ولكنه ليس خبرا عن واقع الناس جميعا، بل المخبر عنه له وصف خاص؛ ومن ثم قال : إن الزاني يراد به هنا من صار الزنا وصفا له وليس من زنا فقط رغم أن وصف الزاني يصدق على كليهما، إلا أن القرائن في الآية ترجح أن يكون المعنى الأول هو المراد دون غيره، قال:" وينبني على هذا التأصيل أن قوله : " الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة " تمهيد للحكم المقصود الذي في قوله :" وحرم ذلك على المؤمنين " وأنه مسوق مساق الإخبار دون التشريع فيتعين أن المراد من لفظ " الزاني " المعنى الاسمي لاسم الفاعل وهو معنى التلبس بمصدره دون معنى الحدوث؛ إذ يجب أن لا يُغفل عن كون اسم الفاعل له شائبتان: شائبة كونه مشتقاً من المصدر فهو بذلك بمنزلة الفعل المضارع ، فضارب يشبه يضرب في إفادة حصول الحدث من فاعل ، وشائبةُ دلالته على ذات متلبسة بحدث فهو بتلك الشائبة يقْوى فيه جانب الأسماء الدالة على الذوات. وحمله في هذه الآية على المعنى الاسمي تقتضيه قرينة السياق إذ لا يفهم أن يكون المعنى أن الذي يحدث الزنا لا يتزوج إلا زانية لانتفاء جدوى تشريع منع حالة من حالات النكاح عن الذي أتى زنا ...

فتمحض أن يكون المراد من قوله :" الزاني لا ينكح إلا زانية " إلخ : مَن كان الزنا دأباً له قبل الإسلام وتخلق به ثم أسلم وأراد تزوج امرأة ملازمة للزنا مثل البغايا ومتخذات الأخدان –ولا يكن إلا غير مسلمات لا محالة– فنهى الله المسلمين عن تزوج مثلها بقوله "وحرم ذلك على المؤمنين " . وقدم له ما يفيد تشويهه بأنه لا يلائم حال المسلم وإنما هو شأن أهل الزنا ، أي غير المؤمنين ، لأن المؤمن لا يكون الزنا له دأباً ، ولو صدر منه لكان على سبيل الفلتة كما وقع لماعز بن مالك "[2].

ومن خلال ذلك يخلص إلى أن المراد من الآية تعليل الحكم بما يفيد تقبيحه والزجر عن إتيانه، فيقول:" فقوله:" الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة " تمهيد وليس بتشريع ، لأن الزاني

---

[1] نفسه

[2] تفسير التحرير والتنوير ج 9 / ص432–433

بمعنى مَن الزنا له عادة لا يكون مؤمناً فلا تشرع له أحكام الإسلام . وهذا من قبيل قوله تعالى : " الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات " [النور : 26] وهذا يتضمن أن المسلم إذا تزوج زانية فقد وضع نفسه في صف الزناة ، أي المشركين.

وعطف قوله : " أو مشركة " على " زانية " لزيادة التفظيع ، فإن الزانية غير المسلمة قد تكون غير مشركة مثل زواني اليهود والنصارى وبغاياهما. وكذلك عطف " أو مشرك " على " إلا زان " لظهور أن المقام ليس بصدد التشريع للمشركات والمشركين أحكام التزوج بينهم إذ ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة .

فتمحض من هذا أن المؤمن الصالح لا يتزوج الزانية. ذلك لأن الدربة على الزنا يتكون بها خلق يناسب أحوال الزناة من الرجال والنساء فلا يرغب في معاشرة الزانية إلا من تروق له أخلاق أمثالها ، وقد كان المسلمون أيامئذ قريبي عهد بشرك وجاهلية فكان من مهم سياسة الشريعة للمسلمين التباعد بهم عن كل ما يستروح منه أن يذكرهم بما كانوا يألفونه قصد أن تصير أخلاق الإسلام ملكات فيهم ، فأراد الله أن يبعدهم عما قد يجدد فيهم أخلاقاً أوْشَكُوا أن ينسوها "[1].

فالنكاح بهذا المعنى يراد به عقد الزواج، والآية خبر ولكن عمن أصبح الزنا وصفا له بأن كان دأبه وعادته، ويستفاد من ذلك معنى آخر وهو أن بين المشرك والزاني جامع وهو أن كلا منهما متجرئ على الله سبحانه وتعالى غير متردد عن الوقوع في معصيته. ويبقى السؤال عن عموم هذا الحكم أو خصوصه؟

عموم الحكم أو خصوصه:

تقدم أن بعض أهل العلم قال: إن الآية نزلت في الزانية المشركة أنها لا ينكحها إلا زان أو مشرك وإن تزوج المسلم المشركة زنا، وبعضهم قال إنها نزلت في وقائع خاصة، وبعضهم قال: إنها منسوخة، وآخرون قالوا: هي خاصة بالزاني المحدود، وقال بعضهم: هي محكمة ومن زنا فسد النكاح بينه وبين زوجته، وإذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها ، وآخرون قالوا: لا ينفسخ النكاح بذلك، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت، ولو أمسكها أثم، ولا يجوز التزوج بالزانية ولا من الزاني إلا أن تظهر توبته. وهؤلاء بنوا رأيهم على كون الآية تنهى عن نكاح الزناة. وإننا إذا استثنينا رأي من يرى أن الآية نزلت في وقائع خاصة

---

[1] تفسير التحرير والتنوير ج 9 / ص433

.

(عناق أو أم مهزول أو جماعة من الزواني) فإن الباقين يرون عمومها، غير أن بعضهم يقول: إنها قد نسخت وهو لا ينفي كونها في الأصل عامة.

وإننا إذا أعملنا ما قرره ابن عاشور من كون الزاني مرادا به من صار الزنا وصفا له نخلص إلى أن من كان كذلك لم يتصور أن ترضى بالزواج منه إلا من كانت على وصفه أي زانية، أو من كانت أشد منه جرما أي المشركة، وكذا من كانت من النساء كذلك لم يتصور أن يرضى بالزواج منها إلا من كان على مثل صفتها: أي زان، أو من كان أشد منها جرما: أي مشرك. وإننا إذا نظرنا لهذه المسألة من هذه الزاوية ارتفع الإشكال لأن المسألة مؤسسة فقها من قبل: وذلك أنه قد علم أن من شروط الزواج كفاءة الزوج للزوجة وليس الزاني كفؤا للعفيفة، كما أن القرآن الكريم نص نصا صريحا على شرط العفة (الإحصان) في النساء في قوله تعالى:" الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آَتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ"[سورة المائدة: 5].

فإذا تقرر هذا ارتفع الإشكال وبدا المعنى واضحا، والله أعلم.

هذا وليس المقصود ترجيح رأي من الآراء الفقهية، بل بيان دور التفسير الموضوعي في توضيح بعض المسائل الفقهية.

النموذج الثالث: المسألة التقعيدية:

قد يكون للتفسير الموضوعي دور أيضا في استنباط بعض المسائل المتعلقة بمنهج فهم النصوص. مثال ذلك قول الشاطبي في الموافقات:" كل حكاية وقعت في القرآن فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها وهو الأكثر رد لها أولا ؛ فإن وقع رد فلا إشكال في بطلان ذلك المحك ي وكذبه وإن لم يقع معها رد فذلك دليل صحة المحكي وصدقه "[1].

وقد ضرب لذلك أمثلة بجملة من الآيات هي[2] :

1 -قوله تعالى:" إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ "[الأنعام: 91]. قال:" فأعقب بقوله:" قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى "الآية.

---

[1] إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي المعروف بالشاطبي، الموافقات في أصول الأحكام ج3/ص353، دار المعرفة – بيروت، تحقيق : عبد الله دراز.

[2] انظر: الموافقات ج 3 / ص353– 354.

2 -" وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا "[الأنعام: 136]الآية، قال:" فوقع التنكيت على افتراء ما زعموا بقوله:" بِزَعْمِهِمْ " وبقوله " سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ يحكمون".

3 -" وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ "[الأنعام: 138]، قال:" ورد بقوله:" سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ".

4 -" وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ "[الأنعام: 139]الآية، قال:" فنبه على فساده بقوله:" سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ... ".

5 -" وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ "[الفرقان: 4]، قال:"فرد عليهم بقوله:" فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ".

6 -" وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ "[الفرقان: 5]الآية، قال:" فرد بقوله:" قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ"الآية.

7 -" وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا "[الفرقان: 8]، قال:" ثم قال تعالى:"انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا ".

8 -" وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا " إلى قوله:" أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا"[ص: 4-8]، قال:" ثم رد عليهم بقوله:" بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي " .

9 -". وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا "[البقرة: 116]، قال:" ثم رد عليهم بأوجه كثيرة ثبتت في أثناء القرآن كقوله:" بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ "[الأنبياء: 26]، وقوله:" بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ "[البقرة: 116]، وقوله:" سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ "[يونس: 68]الآية، وقوله:"تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ "[مريم: 90]، إلى آخره وأشباه ذلك ومن قرأ القرآن وأحضره في ذهنه عرف هذا بيسر ".

وأما النوع الثاني فهو ما جاء ذكره في القرآن الكريم من غير أن يقع رد له، وقد مثل له بجملة من الأمثلة[1] تُرك ذكرها تجنبا للإطالة.

وإننا إذا تأملنا هذه النماذج نخلص إلى أن تتبع نظائر هذه النصوص القرآنية من نتائجه الخلوص إلى قواعد في فهم النصوص وتفسيرها، ولكن يشترط اطراد المسألة حتى تشكل قاعدة يمكن الاعتماد عليها.

فهذه نماذج للاستفادة من التفسير الموضوعي في بيان مسائل عقدية أو فقهية أو تقعيدية وليس الأمر قاصرا على ذلك، بل يمكن أن يتناول التفسير الموضوعي مسائل أخرى أخلاقية

---

[1] انظر: المصدر السابق ص354-358.

مثلا نحو "الصبر في القرآن الكريم"، أو لغوية نحو "لغة المنافقين في القرآن " أو متعلقة بخصائص الأمة نحو "الوسطية في القرآن الكريم"[1] أو غير ذلك من المسائل والمواضيع القرآنية التي لا تكاد تنحصر.

ثانيا: توظيف التفسير الموضوعي في التربية والتعليم والإصلاح:

لا ريب أن القرآن الكريم كان وما زال نبع الهداية والمحرك الأول والمدد الذي لا ينقطع لكل جهد إصلاحي منذ بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو الذي لا تنقضي عجائبه، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. غير أن التكيف مع طبيعة العصر وظروفه يفرض على المسلمين أن يجتهدوا في إيجاد أفضل السبل وأيسرها في تبليغه للناس وتربيتهم به. ولقد شوهدت اليوم طلائع نهضة قرآنية تجلت معالمها في شغف الناس بكتاب الله تلاوة وحفظا ثم نظرا في معانيه، فكان لزاما على المختصين أن يستغلوا هذا التوجه في التربية والتعليم والإصلاح. وإننا نرى أنه يمكن توظيف التفسير الموضوعي بطريقة تعين على الفهم والتدبر، وتنتج تزكية للنفوس وإصلاحا للأعمال. وقد قمت باقتراح نموذجين لتوظيف التفسير الموضوعي بشقيه الذي يتناول السورة أو الذي يتناول موضوعا من خلال القرآن الكريم، وجدير بالذكر أن مثل هذا التفسير يصلح –مع شيء من التكييف– أن يقدم كدروس علمية، كما يصلح أن يقدم كدروس للعامة سواء في خطب الجمعة أو في الدروس اليومية، غير أننا نرى أن تأثيره الواسع قد ينتج عن تقديمه في القنوات والإذاعات لإيصاله إلى أوسع شريحة ممكنة من الناس.

النوع الأول: التفسير الموضوعي الذي يتناول السورة الواحدة:

ومن الأفضل –والله أعلم– أن يراعي المفسر فيه:

- التركيز على المعاني العامة وتجنب الخوض في التفاصيل إلا بقدر ما تدعو إليه الضرورة من بيان لفظ غريب ونحوه.

---

[1] هذه عناوين دراسات في التفسير الموضوعي أولاها للدكتور يوسف القرضاوي "الصبر في القرآن الكريم"، والثانية للدكتور عبد الفتاح لاشين "لغة المنافقين في القرآن" والثالثة للدكتور المصراتي "الوسطية في القرآن الكريم ".

- محاولة ربط الآيات بموضوع محوري يستنبطه المفسر من النظر في أجزاء السورة مجتهدا في بيانه قدر الإمكان.
- توظيف الألفاظ السهلة المعروفة عند الناس وتجنب تكليف المستمع جهدا مضاعفا في البحث عن المعاني الفرعية، ومع ذلك وجب تجنب الألفاظ المبتذلة والمولدة من لغات ولهجات غير عربية تأدبا مع كتاب الله وصيانة لهذا العلم العظيم.
- الحرص على تكرار الآيات وبيان العلاقات بينها وربط بعضها ببعض لتكون حاضرة في ذهن المستمع خاصة من لم يكن قد حفظ السورة فضلا عن الذي لم يعتد تلاوتها أو لم يكن قد تلاها أصلا.

وقد حاولت أن أمثل لهذا النوع بنموذج أسأل الله سبحانه التوفيق فيه.

النموذج: سورة النحل:

سورة النحل هي بحق سورة النعم، عدد الله سبحانه وتعالى فيها من النعم التي أنعم بها على عباده طائفة كثيرة:

- فمنها خلقهم "خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين".
- ومنها ما سخر لهم من الإبل والبقر والغنم:" والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون".
- ومنها ما سخر لهم مما يركب:" والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة..."
- ومنها ما يتعاقب من الليل والنهار والشمس والقمر لهم فيها منافع:" وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره"
- ومنها ما بث لهم في الأرض من مخلوقات:" وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه"
- ومنها أن سخر لهم البحر لتجري فيه الفلك ويستخرجوا منه لحما طريا وحليا يلبسونه، وما جعل لهم في الأرض من جبال رواسي ومن أنهار وطرق وما جعل لهم فيها من علامات وأمارات يهتدون بها في النهار كما يهتدون بالنجوم في الليل" وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16)...

ثم أعقب ذلك قوله –سبحانه–:" وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم" بمعنى: إنكم أيها الناس لو أردتم أن تأتوا على جميع أنعم الله بالعد لم تستطيعوا لأنها كثيرة

وعظيمة، وإن ربكم الذي أنعم عليكم غفور رحيم لم يكلفكم إحصاء جميع أنعمه فضلا عن أن يلزمكم بشكر جميعها على التفصيل، بل أمرتم بشكرها على إجمال أو بشكر بعضها ومع ذلك فإن قليلا منكم يشكر، وهو الذي نص عليه في سورة الرعد:"وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ".

ولقد تضمنت سورة النحل شيئا عجيبا، فقد ذكرت أنعما، وذكرت من كل نعمة متعا، وذكرت من كل متعة ألوانا، وإنك لتسمع النعمة تذكر في السورة ثم يخيل إليك أن السورة قد ذكرت جميع المتع الحاصلة للإنسان منها ثم استطردت إلى ذكر غيرها، ثم إنها تقرع سمعك بألوان أخرى من المتع حاصلة من نفس النعمة، ثم تستطرد إلى غيرها، وحين يخيل إليك أن تعداد الإنعام بها قد بلغ منتهاه تعود لتطرق سمعك بلون آخر يسلب عقلك ويستلب قلبك...

فحين ذكر الله عز وجل نعمة المطر مثلا، عدد نعما كثيرة تحصل منه:" هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ... "، ماء المطر شراب لكم "لكم منه شراب"، وبه تنبت أشجار تأكلون منها وتأكل منها أنعامكم، وينبت لكم به زرعا: وهو الحب الذي يؤكل يابسا، وينبت لكم به زيتونا وينبت لكم به نخلا وينبت لكم به عنبا وينبت لكم به جميع أنواع الثمار...

وإنه ليخيل إليك أن السورة قد استنفدت الحديث عما يحصل من المطر من نعم ومتع ولكنها تعود لتطرق سمعك بـــ "والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها" أي صيرها خضراء بالنبات بعد جدب، ثم تجيئك بما لا يجول بخاطرك؛ ألوان الثمار التي تخرج من الماء تأكل منها حشرة فيعود منه شيء كالماء يخرج من بطونها يشترك في صفة الشراب مع الماء ألوانه مختلفة، وفيه مع ما فيه من اللذة شفاء للناس:" وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) ".

وحين ذكرت السورة الأنعام ذكرت متعا كثيرة تحصل للإنسان منها:" والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون " لكم فيها دفء فتصنعون من صوفها ثيابا وخياما وأشياء أخرى تتدفؤون بها، ولكم فيها منافع سوى الدفء: الجلود ، والألبان ، والنسل ، والركوب، والعمل عليها ، وما إلى ذلك ، وتأكلون من لحومها وهي منافع مادية. ولكم فيها منافع معنوية ونفسية مما يحصل لكم من تجمل بمناظرها وهي تعود إلى مراحها من المراعي في المساء، أو وهي تخرج إليها في الصباح:"ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون"، ومنها ما

يحمل أمتعتكم الثقيلة إلى البلاد البعيدة:"وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس"، وخلق لكم من مثلها مراكب:"والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة".

وإنه ليخيل إليك أنه لم تبق في الأنعام منفعة إلا ذكرت، وأن السورة قد عددت ما فيها تاركة لها إلى غيرها، ليطرق سمعك مشهد عجيب تنقله لك السورة؛ فمن بين فرثها وما يعلق به من أوحال ومن بين ما يجري في عروقها من دماء دافئة، من بينهما يسقيك ربك لبنا صافيا طيب المطعم:"وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين".

ولن تستطيع أن تتخيل أن شيئا بقي يذكر في شأن الأنعام ولكنك لا تسترسل في التلاوة حتى تواجهك صورة أخرى من صور الإنعام:"والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم " –أي جعل لكم من جلود الأنعام خياما يخف عليكم حملها وقت سفركم أو وقت إقامتكم– " ومن أصوافها " أصواف الضأن " وأوبارها " أوبار الإبل " وأشعارها " أشعار المعز "أثاثاً": متاع البيت من الفرش والأكسية ، "ومتاعا إلى حين".

ولا تكاد تقلب بصرك في شيء إلا رأيت لله فيه نعمة بل أنعما:"والله جعل لكم مما خلق ظلالا " أي : مايقيكم حر الشمس مما له ظل من حائط ، وسقف ، وشجر ، وجبل، وغير ذلك " وجعل لكم من الجبال أكناناً " أي : مايَكُنُّكم من الحرِّ والبرد ، وهي الغيران والأسراب " وجعل لكم سرابيل " جمع سربال وهو القميص "تقيكم الحر" والمعنى وتقيكم البرد أيضا استغناء بأحد الضدين، " وسرابيل تقيكم بأسكم " أي الدروع التي تتّقون بها شدّة الطعن والضرب في الحرب ...

– ولينظر الإنسان إلى نفسه ماذا كان:" خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ"

– ولينظر كيف خرج من بطن أمه جاهلا ضعيفا فإذا هو يستوي ويبلغ أشده ويزداد في كل لحظة علما ومعرفة بما أنعم عليه ربه من العقل والسمع والبصر:" وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ".

– ثم لينظر إلى ما يخرج ربه منه:" وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ".

– ولينظر إلى حاله وقد طال به العمر وأوشك على أن يخرج من الدنيا كما دخل إليها "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ".

وإن المتأمل في ألوان النعم هذه لا بد أن يعرف حق المنعم بها " وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ".

ورأس كل النعم الإسلام " كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون" .

ولقد عدد ربنا سبحانه وتعالى في سورة النحل وفي القرآن الكريم كله نعما كثيرة، وجماع النعم كلها نعمتان: الرزق والأمن، كما قال تعالى:" فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ".

ولئن كان الرزق والأمن جماع النعم فإن كمالها وجوهرة تاجها الإسلام، كما قال ربنا سبحانه:"كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون".

ووقع في سورة المائدة:" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا" فكمال الدين هو تمام النعمة وهو الإسلام، وهو الدين الذي ارتضى الله لعباده لم يرض لهم غيره مع غناه عنهم:"إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم"، وهو الميثاق الذي أمر المؤمنون أن يداوموا تذكره ليعرفوا نعمة الله به فيشكروها:" واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا".

وإن الضامن لدوام النعم واستمرارها بل وزيادتها شكر الله عليها "وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم"، وليس الشكر إلا عبادة المنعم بها حق العبادة:" فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف".

ولقد ضربت سورة النحل مثلا لعاقبة من لم يعرف قدر أنعم الله ولم يؤد شكرها وآذنت به الناس عسى أن يكون لهم فيه عبرة، قال تعالى:"وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون".

والقرية هي ما يعرف اليوم بالمدينة وهو المكان الذي يجتمع فيه الناس، مأخوذ من قرى الماء بمعنى جمعه. فأما القرية التي ضرب بها المثل فهي مكة على المشهور أي من كان يسكنها من القرشيين، وقيل: قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز ، فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون.

ولقد ذكر ربنا سبحانه أنه امتن عليهم بالأمن والطمأنينة والرزق الواسع حتى كان الرزق يرد عليهم في هناء وطيبة ومن كل مكان؛ يجلب إليهم من كل بلد، وهو الذي تحقيق لقريش كما في قوله سبحانه:"أولم نمكن لهم حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ".

ولقد قابل هؤلاء نعمة الله بالصد والتكذيب، فسلبهم نعمته وأبدلهم منها لباسا من الجوع والخوف. قيل: عذَّب الله قريشا بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام المحترقة . فأما الخوف ، فهو خوفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سراياه التي كان يبعثها حولهم .

ولقد ضرب الله قريشا مثلا لمن بدل نعمة الله كفرا، وما يوشك أن ينزل به من نقمة وعذاب، لعل الناس يتعظون بحالهم فيجانبوا وصفهم، ويعرفوا نعمة ربهم فيشكروها ويعبدوا المنعم بها، كما كان ذلك حال الخليل عليه السلام الذي امتدحه ربه بقوله:" إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ".

فالناس بين شاكر لأنعم ربه عارف لفضل الله فيها فهو متبع لسنة إبراهيم –عليه السلام–، وبين كافر لأنعم ربه يوشك أن تسلب منه في الحياة الدنيا وأن يجزى بها شر الجزاء يوم القيامة.

النوع الثاني: التفسير الموضوعي الذي يتناول موضوعا من خلال القرآن كله:

وينطبق عليه أيضا ما وقع ذكره آنفا في النوع الأول من مراعاة التركيز على المعاني العامة وتجنب الخوض في التفاصيل إلا بقدر ما تدعو إليه الضرورة، ومحاولة ربط الآيات بالموضوع الأساس، وتوظيف الألفاظ السهلة المعروفة عند الناس، والحرص على تكرار الآيات وبيان العلاقات بينها وربط بعضها ببعض لتكون حاضرة في ذهن المستمع.

وكالنوع الأول حاولت أن أمثل لهذا النوع بنموذج يتعلق بأسباب البلاء والمصائب وعلاقتها بالذنوب.

النموذج: " وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ":

نعم الله –سبحانه وتعالى– على خلقه كثيرة، وإنها لأعظم من أن يحصيها محص، غير أن الله سبحانه وتعالى قد أعد للمؤمن في الآخرة ما هو أعظم منها؛ أعد له ما لا عينا رأت ولا أذنا سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإننا أبدا لن نفكر في وجه من وجوه المقارنة بين الدنيا والآخرة، ولذلك فإن الله يحب من عبده أن يعيش في هذه الحياة وعينه على غاية أبعد منها:" من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب"، بمعنى: من أراد بعمله الآخرة نُضاعِف له الحسنات ، ومن أراد العمل لله بما يُرضيه، أعانه الله على عبادته ، ومن أراد الدُّنيا مُؤْثِرا لها على الآخرة لأنه غير مؤمن بالآخرة ، يؤته الله منها ، وهو الذي قسم له ، " وما له في الآخرة مِنْ نصيبٍ " لأنه كافر بها لم يعمل لها .

غير أن للدنيا زخرفا وفتنة قد يسلب عقل المؤمن ولبه، ولذلك فإن الله العلي الحكيم قد يحميه منها كما يُحمى المريض مما فيه هلاكه، كما قال تعالى:"ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير * وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد".

والآية تنص على أن الله عز وجل لو وسَع الرِّزق لعباده لبَطِروا وعَصَوْا وبغى بعضُهم على بعض، ولكن ينزل أمره بتقدير ما يشاء مما يُصلح أمورَهم ولا يُطغيهم " إنه بعباده خبيرٌ بصيرٌ " فمنهم من لا يُصلحه إلا الغنى ، ومنهم من لا يُصلحه إلا الفقر .

وكما أن ربنا سبحانه قد يحجب الدنيا عن بعض الناس بما يحقق لهم الخير والسعادة ولو كرهت نفوسهم ذلك ولم تعرف له حكمة، فإنه سبحانه قد فتح لهم بابا واسعا للتوبة من ذنوبهم لا يغلق ولا يوصد:"وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون".

ومن أسرار حكمته سبحانه وتعالى أن كل مصيبة نزلت بعبد سببها ذنب اقترفه:"وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم"، فإذا نزلت المصيبة بالعبد تذكر وتوجه متضرعا إلى ربه، وع ذلك فإن الله الغفور الرحيم لم يؤاخذ الناس بكل ذنوبهم "ويعفو عن كثير". فمثل كل الناس في هذه الحياة الدنيا مثل قوم يركبون سفينة في عرض البحر، يرسل الله عليها ريحا تجريها، فإذا شاء سبحانه أسكن الريح فقامت على سطح الماء راكدة يرجو أهلها أن يمن العلي المقتدر بريح وفرج، أو إن شاء سبحانه أهلك أهلها وأغرقهم بذنوبهم، فأيقن المجادلون في آيات الله ألا مفر لهم ولا محيص:"ومن آياته الجواري في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص".

وإن العبد الكافر لجهله إذا متعه الله بالقوة وحلى بدنه بالسلامة ووسع عليه رزقه فرح واستبشر " وإنّا إذا أذقنا الإنسانَ مِنّا رحمةً فَرِحَ بها " والمراد بالإنسان هنا: الكافر؛ والرحمة: الغنى والصحة والمطر ونحو ذلك ، فإن أخذه ربه ببعض ذنوبه إذا هو يئوس قنوط كفور جحود لأنعم ربه:" وإن تُصبْهم سيِّئةٌ بما قدَّمتْ أيديهم فإنَّ الإنسان كفورٌ ". والسَّيِّئة: المرض والفقر والقحط ونحو ذلك .

ولقد نص القرآن الكريم على أن كل ذنب أصاب عبدا هو من عند نفسه كما قيل لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد:" أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم" أي أن ما حل بكم من بلاء سببه شيء اقترفته أيديكم.

وأما الخير فهو نعمة من الله بها على عبده:" ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك"، والخطاب –كما يقول أهل التفسير– موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته..

هذا وبعض الذنوب يظهر تسبب الذنب فيها جليا كما قال ربنا سبحانه في سياق الخبر عن المنافقين:"فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا"، فما حلفوا أنهم أرادوا "إحسانا وتوفيقا " إلا وقد بدا لهم ولغيرهم أن فعلهم هو سبب المصيبة فاعتذروا عنه وهم كاذبون. وبعضها قد يخفى عن الناس تعلقه بالذنوب ولكنه مسبب عنها كما قال تعالى:"ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون".

ومن هذا البابما روى ابن ماجه عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ:" يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِى أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا . وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا ف ي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ[1].

وبعض الذنوب تتسبب في عقوبات قد لا يتنبه لها العباد، ولعل من ذلك ما ورد في سورة التوبة في شأن المنافقين في قوله جل وعلا:"فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ".

ولقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه "الداء والدواء" عقوبات للمعاصي كثيرة قد تكون من هذا الباب، منها حرمان الطاعة، ومنها أنها تلد معصية بعدها، ومنها الظلمة في القلب والتي تزيد حتى تعلو الوجه، ومنها تعسير الأمر، ومنها حرمان العلم النافع، ومنها أنها تصير هيئات راسخة يألفها الإنسان ولا يستطيع فراقها ... وآخر ذلك أن يطبع على قلب العاصي فلا يستحيي من معصيته ويصير مجاهرا بها بين الناس حتى يفضح نفسه بعد أن يستره الله ... اه

وأخيرا أنوه إلى أنني قد أغفلت متعمدا ذكر السور والآيات وأرقامها في هذا النموذج الثاني لأن طبيعة هذا النوع من التفسير تقتضي تجنب الخوض في المعلومات الفرعية حتى لا يقع تشويش في ذهن القارئ أو المستمع.

---

[1] سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات ج 12 / ص 175

كما أنوه أيضا إلى أن هذا النوع من التفسير يمكن أن يقدم بغير اللغة العربية لتركيزه على المعاني، ولولا ضيق الوقت والمقام لقمنا بطرح النموذجين السابقين باللغة الفرنسية لبيان ذلك، ولذلك فإن هذا النوع من التفسير يجب أن يستغل إعلاميا مع بروز القنوات الفضائية كوسيلة للتربية والتعليم والإصلاح –والله أعلم–.